الشعر في عصر صدر الإسلام

(١) الرسول والشعر

علمت مما تقدم أن أكثر شعراء الجاهلية من الفرسان والأمراء وأهل الحرب، وأكثر أشعارهم في الفخر والحماسة بما بين قبائلهم من التنازع، ومرجع ذلك كله إلى العصبية ... كل قبيلة تطلب الفضل لنفسها على سواها، فلما جاء الإسلام وجمع كلمة العرب وذهبت العصبية الجاهلية لم تبقَ حاجة إلى الشعر أو الشعراء ... ناهيك باشتغال أهل المواهب والقرائح بالحروب في الجهاد لنشر الإسلام وبالأسفار، وقد أدهشتهم أساليب القرآن وبهرتهم النبوة وانصرفت قرائحهم الشعرية إلى الخطابة، لحاجتهم إليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد، وهي شعر منثور، وقد جاء الطعن على الشعراء في الآية الكريمة: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

وزد على ذلك أن الرسول لم يكن راغبًا في الشعر؛ لأنه من عوامل التفريق، وهو يدعو العرب إلى الاجتماع، وكان إذا روى شعرًا لا يلتفت إلى وزنه،[١] ومن أقواله: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرًا»،[٢] ولم يكن مع ذلك يبخس الشعر حقه. أما الآية الكريمة التي نزلت في الشعراء إنما يراد بها شعراء قريش الذين تناولوه بالهجاء والأذى، وقد قبح الشعر في الذين غلب الشعر على قلوبهم حتى شغلهم عن الدين وفروضه، وليس الشعر على إطلاقه، ولذلك فقد أبدى إعجابه به بقوله: «إن من الشعر لحكمة» يشير إلى الأشعار التي فيها تدين أو دفاع عن الحق، ومن أقواله: «أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» وكثيرًا ما كان يحب أن يسمع شعر أمية بن أبي الصلت؛ لما فيه من ذكر الله والبعث.[٣]

أما سائر أغراض الشعر فكان يُعرض عنها ويرد عليها بكلام القرآن. يروى من هذا القبيل أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى الرسول، فعرض عليه الإسلام فقال له: «إني رجل شاعر فاسمع ما أقول» فقال: «هات» فأنشد:

لا وإله الناس نألم حَرْبهم ... ولو حاربتنا منهبٌ وبنو فهم
ولما يكن يومٌ تزول نجومه ... تطير به الركبان ذو نبأ ضخم
أسلِما على خسْفٍ ولست بخالد ... وما لي من واقٍ إذا جاءني حَتْمى
فلا سلم حتى تخفر الناس خيفةٌ ... وتصبح طير كانسات[٤] على لحم

فأجابه النبي «وأنا أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾» وقرأ المعوذتين، فأسلم الرجل[٥] وكان النبي مع ذلك يقرب الشعراء المسلمين ويشجعهم على قول الشعر؛ لتأثيرهم في الأذهان.[٦]

وعرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبي وهو يطوف، وكان قد قتل أباها فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه وأنشدته أبياتًا مطلعها:

يا راكبًا إن الأثيلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبْحِ خامسةٍ وأنت موفَّق

إلى أن قالت:

أمحمدٌ ها أنت نَجْلُ نجيبةٍ ... من قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِق
ما كان ضَرَّك لو مَنَنت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المخنق
والنضْرُ أقربُ من قتلتَ وسيلةً ... وأحقهم إن كان عِتْقٌ يعتق

فقال النبي: «لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته»،[٧] ولذلك لم يكن يرى بأسًا من انتصار الشعراء له يدفعون عنه أقوال شعراء قريش، الذين جاءت الآية بالطعن عليهم، وتوعدهم الرسول ففر بعضهم من وجهه ومات البعض الآخر،[٨] وقد تقدم في ترجمة حسان بن ثابت أن أشهر من هجا المسلمين ثلاثة: عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان، وعمرو بن العاص، وأن النبي قال للأنصار: «ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»، فانتصب للدفاع عنه ثلاثة هم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك،

وعبد الله بن رواحة، وكان يرى لأشعارهم تأثيرًا في أعدائه، ومن أقواله: «هؤلاء النفر (الشعراء) أشد على قريش من نضح النبل» وقال لحسان مرة: «اهجهم (يعني قريشًا) فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات».[٩]

(٢) الشعر والخلفاء الراشدون

وسار الخلفاء الراشدون على خطة الرسول في تحريض الناس على حفظ القرآن ... ذكروا أن غالبًا أبا الفرزدق الشاعر جاء بابنه وهو غلام إلى علي بالبصرة بعد واقعة الجمل وقال له: «إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع له» فأجابه علي: «علمه القرآن».

وكانوا ينشطون من يعدل عن الشعر إلى القرآن كما فعل عمر بن الخطاب باستنشاد الشعراء على يد المغيرة بن شعبة ففضل من عدل إلى القرآن، وقد تقدم حديث ذلك في ترجمة لبيد، على أنهم اقتدوا بالنبي في التمييز بين شعر وشعر وشاعر وشاعر، وحرض عمر المسلمين على حفظ الشعر فقال: «رووا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر»،[١٠] وقد أراد أحسنه، ويؤيد ذلك قوله: «أرووا من الشعر أعفه».[١١]

وقد ازدادوا حاجة إلى الشعر لما عمدوا إلى تفسير القرآن فقال ابن عباس: «إذا قرأتم شيئًا في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب»،[١٢] وفي مقدمة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القريشي أمثلة كثيرة من هذا القبيل.[١٣]

ولم يكن الراشدون يرون بأسًا من أن يقولوا الشعر هم أنفسهم؛ فقد رووا لأبي بكر قصيدة حماسية قالها في بعض الغزوات، ورووا لعمر أبياتًا في الحكم ونحوها وكذلك لعثمان. أما علي، فالمروي من شعره كثير بعضه قاله في صفين،[١٤] وليس بين الصحابة من لم يقل الشعر أو يتمثل به.[١٥]

على أنهم كانوا يمنعون الشعراء من هجو الإسلام والمسلمين وأشدهم وطأة في ذلك عمر؛ فقد أخذ عهدًا على الحطيئة ألا يهجو رجلًا مسلمًا.[١٦]

ويقال بالإجمال: إن الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالفتوح إلا ما كان منه من قبيل الجهاد كأقوال حسان وأصحابه في الدفاع عن النبي والإسلام.

وأما سائر الشعراء المخضرمين فقد ترجمنا لهم مع شعراء الجاهلية؛ لأنهم نشأوا فيها وتطبعوا بطبائع أهلها.

هوامش

(١) الأغاني ٦٧ ج١٣.
(٢) العمدة ١٢ ج١، ويريه: يفسده.
(٣) مشكاة المصابيح ٤٠٩.
(٤) كانسات: عاكفات.
(٥) الأغاني: ٥٣ ج١٢.
(٦) الأغاني: ٦٧ ج١٣.
(٧) العمدة ٣٠ ج١.
(٨) العمدة ٧ ج١.
(٩) العمدة ١٢ ج١.
(١٠) البيان والتبيين ٢١٣ ج١.
(١١) الجمهرة: ١٥.
(١٢) العمدة: ١١ ج١.
(١٣) الجمهرة: ٥.
(١٤) العمدة: ١٢ ج١.
(١٥) الجمهرة: ١٦.
(١٦) العقد الفريد: ١١١ ج٣.